مقابلة أدبية مع : محمد مهدي الجواهري

قال : وأين ولدتك أمك ؟

فلت : على قارعة الطريق أيضا ...

قال : أكل شيء على قارعة الطريق ؟

قلت : أجل ، انها من المعتقدات بـ ـ أسطورة !! « سيادة النور » و « عبودية الظلام » ... وهي ترتجف رعبا من الليل ، ولذلك فهي لا تضع حملها الا على قارعة الطريق .

قال : وأبوك ؟

فقلت له : انه لا يشغل بالي من أمره أكثر من انه كان يتحمل الالم ولكن بصمت : بلا ثورة على الالم ، وبلا تجديف . وانه كان يغني ، ثم خاف فترك الميدان . وكل ما هو على شاكلته من المغنين لا يشغل بالي من أمرهم شيء .

قال : ومتى عهدك بالمدينة وأهلها ؟

قلت : وبعد ، فقد استمروا يرقصون حتى بعد ان طردني الحاكم شر الطرد من أجلهم . طردني أنا ومن معي ...

قال : أفأنت حاقد عليهم من أجل ذلك ؟

قلت : لا ... أبدا ، بل غاضب .

قال : أولا تريد أن تراهم ؟

قلت : ان بريق الغضب في عيني ليصدني عن رؤيتهم .

(من مقدمة ديوان محمد مهدي الجواهري)

كتبها بنفسه .

أيها الرجل العتيق عتق التاريخ .

أحدق في وجهك ، أية قدرة على الفرح ، أحسدك محمد مهدي الجواهري ، أنت تستطيع الفرح والحزن والصراخ ، أحسدك وأنت تجرّ التاريخ من عنقه وتلوي ذراعه ، الكلمات في فمك تتحول الى صرخات لا تخصك وحدك ، بل يصرخ بها ملايين الناس ، تقبض حفنة ريح وتلقي بها الى الضوء فيتحول الضوء الى بحر وأرى ... أرى ... أرى دجلة بحرا كذب من قال انه شيء آخر ، رمال وزبد وشاطىء مليء بالقواقع والاسماك وكذب من قال شيئا آخر .

مرة ولدتك أمك على قارعة الطريق .

هكذا تبدأ الحكاية ، وكنا ننتظر ، هذا هو زمن الرعب يا مهدي الجواهري حيث الامهات لم يعدن بقادرات على أن يلدن على قارعات الطرق لان الطرق للآخرين ولم تعد لنا ، سكنك الشعر وسكنت الشعر ، فأي منكما يعانق الشمس دون خجل . أنت ؟ أنت والشعر أيضا .

سأسميك التاريخ وأستريح ، والتاريخ كما تعرف

حميدة نعنع

ليس كتابا ولا حكايات . بل ـ كما قال صديقي ـ هو انسان أسطوري بلا شكل ، أنت عابق بأنفاسه ووقائعه ، وأنى ذهبت لا تخرج من اساره بل تجد نفسك تتوغل فيه أكثر وتحسّ انه يملأك ، يسد عليك المنافذ ، يفرض عليك أن تتعاطى معه ، أن تحدد موقفك منه وعلاقتك به .

أية قدرة في دمك تحولك الى المستقبل ؟ بل أية طفولة ؟

قل لي أيها الطفل الشيخ : هل هناك جروح كثيرة تزرع جسدك ؟ من كسا جلدك بالقبلات وطعنات السياط ؟ نحن ، لان الرجل في بلادنا عندما يسكن المستقبل بشخن بالجراح والقبلات والطعنات . المرأة وحدها تقبله ... تغسل أقدامه ... الرجال يتوجونه بالشوك .

من أين نبدأ ؟

أأعرّف بك ؟ لا ..

أتحدث عن تاريخ ميلادك ؟ لا ..

أنت الزمن دون ميلاد أو تاريخ . سأسميك : محمد مهدي الجواهري ، ومن يجهلك ؟

أنا ، أبي ، أمي ، وغدا ابني نصرخ باسمك ، من أنت بعد كل هذا ؟ من أنت أيها الشيخ الطفل ؟

أعرف انك دون عمر ... أنت لا تعترف بالسنين ولا بقوانينها أو حدود دولها .

الابتسامة على وجهك ونحن متقابلان أمام آلة التسجيل ، عندما أسألك عن عمرك .

ـ عمري أكثر من خمس وثلاثين سنة . أتصدقين ؟

ومتى رحلت الى الغربة ، وكم كان عمرك عندما رحلت ؟

مرة أخرى تبتسم .

قلت لك أكثر من خمس وثلاثين سنة .

ـ أحييك . لقد مضى زمن لم نلتق فيه . تذكر لقاءنا الاخير في دمشق في مؤتمر الادباء الرابع ، كان ذلك على ما أذكر ، عام ١٩٧٠ .

ـ لا ، لا ، كان ذلك عام ١٩٧١ . ان ذاكرتي قوية. أعدّ على أصابعي ... أخرج جواز سفري فأحدق

بتاريخ غربتي أنا . منذ ذلك اليوم لم أر وجه دمشق ، وتعرف انني أعشقها كل العشق .

ـ صحيح ، كان ذلك عام ١٩٧١ .

ـ لسوء حظي فانني أملك ذاكرة قوية ... ذاكرني لم نضعف ويا ليتها تموت ، لان من الاسهل أن ينسى الانسان في هذا العصر . ان تذكر الزمن المديد شيء مؤلم ، يا ليتني أنسى الخمسين سنة الماضية .

أضحك :

ـ أستطيع أن أعرف عمرك الآن ، اذا كنت قد بدأت تعي العالم في السن العاشرة فانت الآن في الستين .

تضحك أنت :

ـ قلت أكثر من خمس وثلاثين سنة .

ـ دعني أسبح معك في التاريخ يا جواهري ، دعني أعود لطفولتك ، أنظر الى عيني ، وانس انك هنا ، في هذه الغرفة ، في الساعة الثامنة والنصف من يوم ... انس قليلا وعد معي الى الماضي وتذكر مهدي الجواهري الطفل .

ـ أنا من عمر جدك ورائع أن تذكريني بطفولتي . ها هي أمامي وكانني أعيشها الآن . بيتنا العتيق الواسع في النجف بغرفه الكثيرة الواسعة وأنا طفل على صدر امي . كنت ما أزال أرضع ، واذكر أين تقع غرفة جدي في البيت . شكله ، لحيته . وجهه . قلت هذا لأمي فيما بعد ودهشت . قالت لي : لقد مات جدك وانت رضيع ، هذا عجيب . كيف تذكر ذلك ؟ بالمناسبة لقد ماتت أمي عن عمر يناهز الـ ٩٢ سنة ، رغم كل الصعوبات التي تعرضت لها في حياتها ، نحن من أسرة تعمر طويلا . كانت أمي تقول لي عندما ترى ابنتي هلال : انها تذكرني بك ، نفس المشية والحركة ورفعة الجبين . كان عمري ثلاث سنوات ، وكان البناؤون يبنون جدران بيتنا ويطلونها بالقير ـ أحب رائحته لانها تحمل النظافة ـ كنت اخرج اليهم وعندما يرونني يتركون العمل ويبدأون صفقة . ثم يغنون :

« مهدي عنيبي
يفور فورة
ويستوي بعدين ينصح
مهدي حنينه عزيز » .

ومعنى المقطع الاول : مهدي عنيبي ، أي يد أقصر من يد ، لانني سقطت مرة وكسرت يدي. كانوا يسخرون مني أيضا عندما يقولون : « مهدي حنينه عزيز » أي يعيرونني بأخي الذي يكبرني ، ومعنى ذلك انني لا أساوي الوصلة التي يلفونه بها . ولم أكن أغضب منهم لانني أعرف انهم يحبونني .

الشر والخير في الانسان منذ طفولته ... يصارعان أبدا . تصوري ، عملت مقوارا من الزفت وجربته مرة في رأس أحد أبناء عمي ـ واسمه (عزيز) ـ

فشقه وسال الدم ، ولما حاول أن ينتقم مني غطتني عمتي بعباءتها .

أبي ؟ الذي كان يغني وصمت . لا أدري لماذا ؟

أصر على أن يصحبني معه كل ليلة الى مجالس الادب والعلم في النجف ، أن يجبرني على الاستماع ليالي الى أشعار المتنبي وزهير ، وكنت أسأم أحيانا وأنام ، أجبرت على حفظ نهج البلاغة ، وأمالي السيد المرتضي والقالي والبيان والتبيين للجاحظ. وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وأنا في الثامنة من عمري . مصيبتي حافظتي وتأتي عندي بعد مصيبة الذاكرة . لقد أثقلوني بما لا قدرة لي عليه . اسمعي هذا المقطع من خطب الامام علي :

(ويريك من خضرة زبرجدية وخضرة عسجدية) .

هذا يرافقني منذ الطفولة .

كبرت في النجف ، وفي الثالثة عشرة تقريبا بدأت كتابة الشعر ، كنت أهرب الى قبو البيت لاصرخ بأبياتي وهي صفة ما تزال تلازمني حتى اليوم ... أنا أدندن الشعر وأتغنى به قبل أن اكتبه .

أبي الذي كتب الشعر وتوقف لم يرد لي أن أتجه الا الى الدين . كانوا يريدون أن يجعلوا مني رجل دين

ـ ما شاء الله ـ ولكنني كنت أخفي كتب الادب والشعر تحت كتب الدين حتى يعتقد والدي انني ما زلت في الخط الذي أراده ، وأخيرا كان ما كان ... لم يتركوا لي فرصة اللعب في طفولتي وما زلت أندم على ذلك .

ـ هل لعبت في الحياة فيما بعد ؟

ـ صدقيني ان هناك مفارقات عجيبة في شخصيتي . لقد كتبت شعرا غزليا في منتهى الروعة والجرأة دون أن أعرف المرأة ، دون أن أعرف شيئا عن الحياة .

ـ وأين كانت المرأة ؟

ـ كانت في الذاكرة ... في القلب ... لم يصدقني أحد . كانوا يظنون انني أكتب ما أكتبه عن تجارب حقيقية ، لكن هذا غير صحيح . تذكرين قصيدتي :

لا أكذبنك انني بشر جم المساوىء آثم أشر

والله لم يكن عندي لا اثم ولا شر ، لكنني تصورت ما يجب أن أكون عليه لكي أكتب الغزل .

ـ ألم يكن نوع من التحدي لشيء قائم ؟..

ـ لا أدري ، اسمعي بعض أبيات القصيدة :

ومسكت نهديها وأحسبني أشفقت أن تتدحرج الوكر

اسمعي أيضا :

جربيني قبل أن تزدريني
واذا ما ذممتني فاهجريني

ويقينا ستندمين على انك من قبل لم تعرفيني

كتبت كل هذا دون أن أعرف المرأة .

ـ وكيف ؟ بماذا كنت مشغولا ؟

ـ كنت تائها بين الوظيفة والعمل الصحفي ... في ديوان وزارة المعارف والتدريس .

ـ أستاذ جواهري ، أنت جزء من تاريخ العراق الحديث . لا يمكن أن أتحدث عن العراق دون الحديث عنك . الايام الماضية كانت صعبة ... كانت قاسية ... وكانت مفرحة أحيانا ..

ـ أنا في الصميم .

ـ ماذا ترك عندك الماضي الذي عايشته وعايشك ؟

ـ ترك عندي هذا الذي ترينه الآن أمامك : لقد ربطني بالناس ولم أستطع أن أنفك عنهم أبدا .

ـ أتشعر بحاجتك لهم ؟

ـ نعم ، ولا أتصورهم بحاجة لي .

ـ ماذا يمنحونك ؟

ـ خير ما عندي ... القدرة على النطق .. على التعبير ، وهذا ليس بقليل .

(أين أنت يا سارتر ؟ الآخرون ليسوا بجحيم...)

يستمر الجواهري :

ـ الناس هم الذين يجعلونني أقول في هذه السن ما أقوله ، وهذا نادر لدى الشعراء . تعرفين ان الرصافي انتهى قبل موته بـ ٢٥ سنة ، الزهاوي انتهى قبل أن يبدأ ، شوقي مات شابا ... في الستين ، ولو بقي أكثر ربما كان قد انتهى ... وأنا ! والحمد لله ما زلت أقول الشعر حتى هذه السن . رحلة طويلة لي لم أحصل فيها على شيء الا هذا المنزل الذي ترينه ، ولكنني حصلت على حب الناس وتقديرهم لي .

ـ كنت مناضلا سابقا في الحزب الشيوعي ورافقت الناس أثناء فترة الاضطهاد ..

ـ لم أكن في الحزب يوما وأفتخر لو كنت . خيرة أصدقائي منهم وأنا في الصميم منهم أيضا . لقد أعطوني نفسا وهم يقطعون مسيرتهم الصعبة التي أنا جزء منها ... يسمونني رفيق الطريق .. أحبهم ولم أخنهم ولن أخونهم أبدا . لقد سألتني احدى الصحافيات يوما عما اذا كنت في الحزب ؟ قلت : لا ! قالت : يقال انهم يضعونك في جيبهم . قلت لها : الشيوعيون الذين أحبهم في جيبي .

وقد زورت ما قلت وكتبت : انني أخاصم الشيوعيين . يومها أثرت ضجة كبيرة وطلبت اليها التصحيح ، أنا لا أخاصم الشيوعيين .

ـ أنت محمد مهدي الجواهري وهذا يكفي .

ـ هذا صحيح . أنا محمد مهدي الجواهري ، لم أخض التجربة الحزبية ... الا مرة واحدة : كان ذلك عندما دخلت حزب الاخاء الوطني أيام الحكم الملكي . « تونست » قليلا ...

ـ لنعد الى الغربة . أنا قادمة من الغربة . قل لي : متى كان رحيلك الى الغربة ؟

ـ أول رحيل لي كان عام ١٩٥١ الى مصر (ولا أسميه غربة) . ذهبت لزيارة أولادي الذين أخذهم الدكتور طه حسين ليدرسهم على حساب وزارة المعارف المصرية مساعدة لي . ثم بعد ذلك الى دمشق . ولكن الغربة الحقيقية بدأت عام ١٩٦١ ، أيام حكم عبد الكريم قاسم ، ذهبت الى براغ ومكثت فيها .

ـ هل أجبرت على الرحيل ؟ هل كنت ملاحقا ؟ أكنت مهددا بالسجن ؟

ـ لم أسجن أبدا في حياتي الا مرة واحدة ولمدة شهر فقط . الامر الذي أثار ضجة في البرلمان ، لقد أوقفت شهرا واضطر الحاكم أن يحكم عليّ بشهر فقط ، ومع ذلك فقد شتمت القضاء في قاعة المحكمة . السجن ليس بطولة ، والذين يتبجحون بهذا دائما مغفلون . لقد كانت لديّ حصانة ما ، كان الحكام يخافون الناس ويحسبون حسابا لتأثيري عليهم .

ـ وهل كان سجنك بسبب قصيدة ؟

ـ لا . بل بسبب مقال سياسي .

ـ والآن . والآن مهدي الجواهري ، لننتقل الى الشعر .

ـ كنا نتكلم شعرا أليس كذلك ؟

ـ أقصد لننتقل الى تجربتك الشعرية . قل لي : كيف تكتب القصيده ؟

ـ عندما أكتب الشعر ، تعلن حالة الطوارىء في البيت ، ويغلق باب غرفتي . أجلس الى المنضدة وأمامي صحنا سجائر ... أدخن بشراهة ... أقف ، أزرع الغرفة جيئة وذهابا وأدندن بالموسيقى بصوت مرتفع ، موسيقى دون كلمات . يعلو صوتي كثيرا حتى يصل الى الجيران ، وكم أزعجتهم وأيقظتهم من نومهم . هنا يتحملونني ، ولكن عندما كنت في براغ كثيرا ما كانوا يقرعون الجدران فأضطر للتستر باللحاف وخنق صوتي. أدخن ما يقارب خمسين سيجارة ، ولا أستعمل الورق العادي ... يعجبني أن أكتب على غلاف الكتب وعلب السجائر . وقد أضعت قصيدتين بسبب ذلك ، لانني نسيت وألقيت بعلب السجائر دون أن أنتبه ..

عندما أكتب الشعر ، أبدأ بتسجيل الفكرة ثم أبحث عن البحر الذي يلائمها .

ـ كم مرة تكتب القصيدة ؟

ـ مرة واحدة فقط .

ـ ألا تصحح ؟

ـ نادرا ، وفي اربعة أو خمسة أبيات ربما .

ـ هلّ تسقط بعض الابيات ؟

ـ لا ، أعدل فيها لأن كل بيت عزيز عليّ ، كل بيت قطعة مني ، أحاول أن أعدل ولا أسقط ... أبدل الكلمات وأسوغها على الفكرة ، لكنني لا أصوغ الفكرة على الكلمات .

ـ ما هو احساسك بعد أن تنتهي من كتابة القصيدة ، وكيف تراها ؟

ـ احساس جميل ... أتصورها عشيقة جميلة أحبها . عندما أصحو منها أبدأ بتفحصها وأتساءل : هل تستحق مثل الصورة التي أعطيتها اياها ؟ أحاول أن أنقدها دون أن أغرى بها . لا أريد أن يسحرني اغراؤها أو يسيطر عليّ . أحاول التجرد بصدق ، لكنني أحبها وتحبني ، أتملاها بعين واعية ، واذا ما كان هناك من ملاحظات خفيفة أعدل فيها . ونادرا ما أفعل ذلك .

ـ كيف تشعر ان القصيدة قد انتهت ؟ وهل يمكن ان تضيف أبياتا جديده ؟

ـ لا أستطيع أن أضيف ، عندما تنتهي القصيدة تنتهي ، لانني قد قلت ما أريد قوله .

ـ أستاذ جواهري ، كم واحدا أنت ؟

ـ سؤال لطيف وذكي . أنا اثنان في واحد .

ـ هل تبحث عن الوحدة الكلية بين الاثنين ؟

ـ بحثت وأبحث باستمرار .

ـ عرفني على الاثنين .

ـ هذا الذي أمامك ، الذي تقرأينه وتحبينه وتصورين انه منسجم مع نفسه . أما الثاني فرجل متناقض كثيرا في تصرفاته .

ـ العادي أم الفنان ؟

ـ العادي وبشكل غريب . طفولات ، تصرفات غبية من أغبى ما يمكن . الاعتيادي لا يعملها . أشعر انني أشد غباء من الآخرين . أعطيك مثلا على ذلك : لقد دخلت مرة على شخص عظيم فوقف مرحبا بي ، وبدل أن أجلس في مكان مناسب كي يراني جلست الى يمينه بحيث كنت أعلى منه .

ـ ربما عملت هذا بشكل تلقائي ، لشعورك انك أرفع منه ؟

ـ أبدا ، أنا مهذب جدا وأحترم الناس .

ـ لنعد الى الشعر .

(كان في رفقتي زميل صحفي من مجلة «الرسالة» الكويتية ، وقد طرح سؤالا على الجواهري يتعلق ببدر شاكر السياب ، وحرصا على أمانة الجواب سأسوق السؤال والاجابة) .

سؤال الزميل : ألا ترى ان السياب قد أخذ أكثر مما يستحق ؟

أجابه الجواهري : أنت سألت وأنت أجبت . لقد تصورت عندما بدأت حميدة مقابلتها انها ستسألني مباشرة عن السياب لانني اعتدت على هذا النمط من المقابلات . سأجيب على كل حال : نعم أعطي أكثر من حجمه . السياب صديقي وقد دخل بيتي ، عنده بعض الشعر الذي يذكر ، وكثير من شعره لا قيمة له . لكنه نفخ كثيرا ، وهذا يرجع الى انه مات .